

٢٥- الإيمان والعمل والجزاء

بعد أن وصف الله تعالى جزاء الظالمين في تركيز وإيجاز انتقل إلى وصف المؤمنين في تفصيل يحمل إلى النفس روح الجنة وريحانها. عدد الكلمات المحدود في وصف النار والعذاب كأنه نظرة عميقة جامعة سريعة. كأن باباً فتح فرأينا من ورائه صفحة العذاب ثم انتقلنا منه إلى باب آخر. باب كله خير ونور. هو باب النعيم.. باب على طريق، أوله الإيمان والعمل الصالح، وغايته ومنتهاه. جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار.

ولنقرأ معاً ما جاء وصفاً للإيمان وجزائه:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ ﴾

الربط بين الإيمان والعمل. وبينهما وبين الجزاء. قد يتأخر الجزاء. قد يأتي بصورة غير متوقعة. ولكن لا يضيع عند الله أبداً. قد يكون بعضه في الدنيا، وبعضه في الآخرة. أو كله في الآخرة كما يحدث مع الشهداء.. ولكن الله تعالى أخبرنا، أنهم وهم في جواره، وقبل القيامة، يحسون ويفرحون ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ويصف الله ما أعد لهم: ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝ ﴾

وفى وصف هذا الجزاء مسائل:

الأولى: لهم جنات.. والجمع يفيد التعدد والتنوع، يلتقى هذا مع قول الله تعالى ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ (السجدة: ١٧).

- وقوله ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴾ (الرحمن: ٤٦).
- ومرة نقراً: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣).

ففى آية نقرأ "جنة" ومرة نقرأ "جنتان"، ومرة "جنات"، ومرة هى "عدن"، ومرة "فردوس". لكل جنة ولكل جنة وأكثر.

((وعدن)) معناها الإقامة أو هى جنة هى جزء من الجنة الكبرى، جنة الجزاء..

المسألة الثانية ﴿ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ وتأمل فى هذه الآية قول الله ((من تحتهم)) هذه الشبكة من الأنهار التى يراها كل من أسعده الله بالجنة. والنهر ليس مجرد ماء يجرى. إنه فى دنيانا هذه: حركة متجددة. صورة. لون هدير. خرير. موسيقى من التدفق. ولازلت أذكر فى زيارة لقصور الحمراء فى غرناطة، وكيف صنع الإنسان - والإنسان مخلوق - كيف صنع من الماء موسيقى، لها سلم فى تدفقها، وكيف صنع منها حجوماً وأشكالاً.. تتناغم مع درجات لون الخضرة.. هذا فى دنيانا.. ولقد كان الماء ولازال من أهم ما تغنى به الفنانون وبخاصة الفنان المسلم: النافورات. أماكن الوضوء فى المساجد. إن قول الله تعالى: ﴿ تَجْرِي مِنَ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ تحمل من معانى الجمال والجلال ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. إن ربنا أعطانا - نحن البشر - جانباً من القدرة على الإبداع.. وأرانا جوانب من الإبداع فى خلقه، وهو سبحانه - بديع السماوات والأرض - ووراء كل جمال تصورناه جمال فى دار الخلد والمقامة.

المسألة الثالثة: ﴿ تَكُونُ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾

وقفت عند هذه الآية وفيها ذكر الذهب والسندس والاستبرق؛ والسندس هو الحرير الرقيق، والاستبرق هو الحرير الصفيق أى السميك، والثياب خضرا والخضرة أكثر الألوان إراحة للنظر.. نحن نستبشر به يقظة ومناما.. وحتى فى دعائنا ندعو الله أن يجعل الحياة خضراء، والخضرة رمز الشباب المتجدد. واللون فى ذاته لغة..

نربط بين هذه الحلية من ذهب واللباس من حرير، وما جاء فى آية أخرى فى وصف حلية أهل الجنة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا^ط
 وَلباسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَهُدُوءًا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوءًا إِلَى صِرَاطِ
 الْحَمِيدِ ﴿ (الحج: ٢٣ - ٢٤). والآية تضيف اللؤلؤ إلى الذهب والحريـر.

وفى آية سورة الإنسان. ﴿ وَحُلُوءًا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾
 (٢١) إضافة الأساور الفضية والشراب الطهور.

ونقف قليلا عند اللباس والحلية:

جاء في الحلية قول الله تعالى "تُحَلَّوْنَ". الفعل مبنى للمجهول من الذى أو الذين
 يحلونهم؟ هل تحليهم الملائكة؟ هل يحلى بعضهم بعضا، أهلا وأصدقاء؟ كما
 يتهادى أو كان يتهادى أهل الدنيا الحلى؟ وما مصدر الحلى في الدنيا؟ البر
 والبحر. وما حلى البر؟ الذهب والفضة وما يلحق بها. وما حلى البحر؟ اللؤلؤ وما
 يلحق به. والحلى للتجمل. والتجمل تنوع في الحلى شئ من الفاكهة التى وصف
 الله أمرها وتناول المؤمنین لها في جنته فقال: ﴿ وَفَكَهَيَّةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾
 (الواقعة: ٢٠) وفى التخيير إحساس بالجمال. إنه متعة ذهن وفكر قبل أن يكون
 متعة تناول.

أما اللباس فللستر والتجمل أيضا.. فهى تشترك مع الحلى في التجمل وتتفرد
 دونها بالستر.. والسندس والاستبرق يشتركان في أنهما حرير ويتباينان رقة
 وسمكا.

المسألة الرابعة: ﴿ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ﴾ والأريكة في ذاتها ستر آخر.
 والأريكة سرير في حجلة. والحجلة، بيت يزين بالثياب.. فالأريكة مكان جلوس
 واتكاء، عليه ستر متى شاء صاحبه أرخاه، ومتى شاء كشفه وفى هذا مزيد من
 الحرية والتمتع.

المسألة الخامسة: ﴿ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ في هذا مقابلة، مع ما جاء
 عن الظالمين وجزائهم ﴿ بئسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ومع المقابلة تباين: هناك
 بئس الشراب. وهنا نعم الثواب جاءت بئس وصفاً للشراب. ونعم وصفاً للثواب.

وفرق كبير بينهما. جزاء الظالمين حق وعدل. ولا يوصف الحق والعدل ببئس.. وإنما يوصف به طعامهم وهو من ضريع، وشرابهم وهو من حميم.. أما الثواب فيوصف بأنه "نعم" الثواب المتمثل في كل ما حولهم من ماء وظل وأنهار وشراب ولباس وحلى ورفقة، وقلوب مبرأة من الغل، وألسنة حامدة شاكرة هذا كله "نعم الثواب".. ووراء كل خير زيادة هي من فيض الرحمن وفضله. ويعقب ربنا على هذا بقوله: (وحسنت مرتفقاً) هذه الصورة كلها بتفاصيلها وزياداتها التي لا تقف عند حد بنعيمها ورفقتها = حسنت مرتفقاً.

٢٦- حوار مع صاحب الجنتين

تأتى بعد هذا ثنائية أخرى. صورة من صور الدنيا بين اثنين: أحدهما سعيد بإيمانه، والآخر بما بين يديه من متاع الدنيا.. ونحس نوعاً من التشابه- أقول نوعاً لا أكثر - بين ما جاء في وصف جنة الجزاء، وما جاء في وصف جنة الاختبار والابتلاء.. ثم يمضي الأمر، فإذا الجحود يعصف بجنة الابتلاء، ويمضى الإيمان على طريقه السوي حتى يصل إلى جنة الجزاء التي لا تفتنى ولا تبيد.

ولنقرأ معاً قول الله تعالى: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمْ بِنَخْلِ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٦﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٧﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۖ ﴾.

هذان رجلان. صاحبان. أو أخوان. لأحدهما جنتان وتستخدم الآية لفظ. جعلنا لأحدهما جنتين.. فهما من فيض الله وإرادته. والأفعال في وصف الجنتين كلها منسوبة إلى الله تعالى: " وحففناهما. وجعلنا بينهما زرعاً. وفجرنا خلالهما نهراً. الجنتان وما فيهما من أعناب. النخل. الزرع وهذه ثلاثة. والأرض طيبة بدليل أن الجنتين مثمرتان. والماء متوفر، " وفجرنا" تفيد الكثرة والتدفق والجريان وكان له ثمر..، والثمر هنا تحمل معنيين: الأول ثمار الأرض نفسها وهي الأعناب والنخيل والزرع. أو أثمان هذه الغلات فالثمر هنا تعنى الغلات ذاتها أو أثمانها.

ومرة أخرى المقابلة بين الفقر والغنى. بين الفقر المصحوب بالإيمان والغنى المصحوب بالكفران. مرة أخرى نرى صورة المستضعفين من المؤمنين والمستطيلين

عليهم من سادة قريش وكبرائها. مرة أخرى ترى انتصار القرآن للإيمان حينما كان موقعه في المجتمع، وردعة للكفران وإن اغترب المال والجاه والسلطان.

وتتوالى الأمثلة تؤكد الخط الرئيسي في السورة، وهو الخط الأساسي في القرآن كله.. الانتصار للإيمان حينما كان.

يقول الله تعالى عن صاحب الجنتين: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿١٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾.

ونستحضر من مدخل القصة أمرين:

الأول قول الله في وصف أكل الجنتين: ﴿ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ فالأرض والماء والزرع آتى أكله ولم يظلم منه شيئاً. بينما صاحب الجنة. هو ظالم لنفسه. مقومات الزراعة سارت كما أراد الله لها أن تسير. وهذا الظالم انحرف عن الطريق الذي أراده الله فكان ظالماً لنفسه.. فأصبح منذ أوائل القصة دون الماء والنبات.. دون الأرض التي يسير عليها، والتي يظن أنه مالكتها والمتصرف فيها.

وظن أنه صاحب هذا كله، صاحب الحقيقي والمالك، فقال:

﴿ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾.

لقد ظلم الرجل الماضي والحاضر وها هو يظلم المستقبل ويتجرأ على غيب الله، فيحدد مصير الجنة - وأنها على الأقل - ستكون أطول عمراً منه فلا يراها تبيد أمامه ولو تأمل قليلاً لرأى الأمر على غير ذلك:

هذه الأرض التي عليها يسير. كم من الأجيال عمرتها وزرعته وملكتها من قبله، هذا الطين من أين جاء؟ هل حمله نهر من جبال بعيدة ثم أرسبه هنا؟ هل هو تفاعل بين الصخر الذي يقف عليه والهواء الذي يحيط به، والماء المتدفق من النهر. آلاف السنين تمر على هذه الأرض الهادئة الصامتة، وهي تستقبل أجيالاً، وتودع أجيالاً. يلقون فيها البذر فتثمر. ويشقون فيها القبور فيثوى فيها الناس جيلاً بعد جيل حتى يقوم الناس لرب العالمين.

والماء المتفجر؟ من أين جاء؟ ما مساره في الأرض؟ إن كل الذي يراه صاحبها أن الماء يتدفق. والماء رحلته طويلة، تبدو هنا في قول الله تعالى: (وفجرنا) والتفجير اندفاع. والاندفاع ضغط. ما مسار هذا الماء؟ كل الذي يراه نهاية مرحلة في مسار الماء في باطن الأرض، وبدء مرحلة في مساره على سطحها. ولو تأمل قليلا هذا المسار لرأى فيه عجبا: هو يشرب بعض هذا الماء، وبهائمته تشرب قسما، والزرع يمتص قسما يحوله بعد هذا إلى جذور وسوق وأغصان وأوراق وأزهار وثمار، وجزء يعود إلى الأرض يرويهها وجزء يتبخر فوقها، وجزء لنظافته وطعامه.. كيف تكوّن هذا الماء الذي جعل الله منه كل شئ حي؟ ونستطيع أن نتابع التأمل في النخيل والأعشاب والزرع. ونتأمل في الثمر - وهو في بعض التفاسير - إما الثمار ذاتها أو أثمانها. وتحمل الآية أن الثمر هو المال والولد. فنرى الآية ((وكان له ثمر)) أى: وكان للرجل ثمر هذا بعد أن وصف الله الجنتين فالثمر هنا أمر مضاف إلى أكل الجنة وقد سبق ذكره، وكان الله أعطى الرجل الجنة بنخيلها وأعابها وزروعها ونهرها وأعطاه فوق ذلك مالا وولدا..

أى نعمة من هذه تستوجب من العبد لله شكرا. ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (إبراهيم: ٣٤).

والإنسان هنا ليس كل إنسان. ولكن من الناس ظلوم كفار وهذا هو النموذج وسيأتى من بعده نموذج الرجل الصالح.

لم يقف هذا الظلوم الكفار عند نعمة واحدة من هذه النعم، إلا رأى أنه صاحبها لم يتأمل الماضى ولا الحاضر. وطفى على المستقبل فقال: ﴿ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴾ ؟! وهل تستطيع يا صاحب الجنتين أن تتحكم في عوامل الجو؟ هل تستطيع السيطرة على العواصف؟ هل تستطيع التحكم في جريان الماء المتدفق من النهر، وقد فجره الله لك؟ بل هل تستطيع التحكم في أنفاسك أنت وتردد الهواء في صدرك؟ لا.. ولكنه الطغيان الذي اندفع هذا الظالم في تياره وهو يظن أنه مسيطر على التيار، واندفعت من فمه كلمة غليظة يتحدى بها نظام الكون كله فقال ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ وأنت تحس الشطط البعيد والكفران والجحود في هذه الجملة؟ ما دخلها في حوارك أيها الظالم الكفور؟ وما الذي

أدخل الآخرة في الحوار، وأنت واقف في جنتك تظن وأنت فيها أنك صاحبها؟ ولكنه الغرور والبغى..

ولا يكتفى بإنكار الآخرة، فقد تحدث، فما عندك أيها الظالم إذا حدثت؟ لقد أعد جوابه: إننى هنا أهل للجنة وعندى بدل الجنة جنتان. حولهما النخل وفيهما الأعناب والزروع وعندى المال والولد. فأنا متعود على هذا النعيم. فإذا جاءت الآخرة أخذ الله أهل النعيم الدنيوى ليكونوا سكانا للنعيم الأخرى! رأيت أو سمعت جحودا أو جنونا أشد من هذا؟ إن هذا الظالم يريد أن يشرع للآخرة لائحة تسير عليها. واللائحة عنده بسيطة؛ أغنياء الدنيا وأهل النعيم فيها مديرون على الحياة في النعيم، فهم أولى بالجنة. أما هؤلاء الفقراء فماذا يصنعون في الجنة الأخرى؟ وهم لم يروا ولم يتمرسوا بشيء من جنات الدنيا ونعيمها؟ هكذا قال، وهكذا أخذ الظالم يشرع حتى في نظام الحساب يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وانظر كيف تدرج به الكفر والجحود من ظلم نفسه إلى الجرأة على الماضى والحاضر، إلى الجرأة على المستقبل، إلى إنكار الحساب الأخرى، ثم إذا افترض وجود حساب فقد أعد له هو الذى أعد قاعدة الحساب ليسير عليها اليوم الآخر.. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

بلغ هذا الظالم آخر المدى.. وقبل أن نذكر رد صاحبه المؤمن نقف عند كلمة في القصة وهي كلمة (جنة) وهي تحمل هذا الاسم لأنها تجن صاحبها أى تستره. ومادة (جن) أى ستر. نستطيع أن نتابع هذه المادة في اشتقاقاتها: المجن هو الذى يستتر به المحارب. الجن خلق مستور غير الإنس والانس يقتضى الظهور. وجن الليل إذا ستر الوجود. والمجنون من كان عقله محجوباً أو مستوراً لا تظهر آثاره.. فقول الله تعالى: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ الجنة هي التي تستره هي أكبر منه. إذا دخلها غاب فيها واستتر. هو أصغر منها وهو فيها مستور. ألم يكن يكفيه هذا المشهد ليعلم أن جزءاً ضئيلاً من خلق الله، وهو هذه الجنة، قادر على ستره فلا يراه أحد. وأنه عند دخول الجنة هو الأصغر لا الأكبر، هو المستور لا الساتر ولكن فوران البغى.. رأسه ذهب به بعيداً حتى إلى جحود الآخرة وما هو أكثر من الجحود هو وضع نظام لتوزيع جزائها بين الأغنياء والفقراء دون نظر إلى الإيمان والجحود.

نتنقل إلى الآية التالية ونرى فيها قول صاحبه المؤمن ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ
مُخَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿١٦﴾ لَيْكِنَّا
هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾

وصاحبه تفيد الاقتراب منه، ومحاولة استمالاته بالحجة والبرهان. ثم قول الله
تعالى: (وهو يحاوره)

تدل على المحاولة واستمرارها. وتحمل الآية أيضاً وقوف الصاحب خصماً في
الرأى لهذا الظالم لنفسه.

والأصل في الكلمة (حَوْر) ومنها الحوار - وهو فصيل الناقة - لأنه يعود إليها
أمناً ورضاعاً كلما ابتعد عنها. ومما قيل في معنى الحواريين "أصحاب عيسى"،
عودتهم إليه والتفافهم حوله.

قال هذا الصاحب الصالح لذلك الظالم: ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ
ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾ وهذا استفهام إنكارى لأن الصاحب كان يعلم
أن صاحبه مشرك بدليل قوله: ﴿ وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾.

وكلمة كفرت تحمل أنك تعرف حقيقة الإيمان ولكنك تؤثر البغى والتعدى.
ومادة (كفر) معناها غطى. ولهذا سمي الزارع كافراً لأنه يكفر البذر في الأرض
أى يضعه ويدسه فيها. وبهذا نفهم قول الله تعالى ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ
نَبَاتُهُ ﴾ أى الزراع.. وهم الذين تتبّعوه من وقت أن كان بذرة حتى أخرج شطأه
واستوى على سوقه.. وكأنه يقول له: أزل هذا التراب الذى يغطى الإيمان. تراب
الغرور الذى انهال على قلبك وأعد إلى قلبك نقاءه وصفاءه. فأنت أيها الظالم من
تراب هذه الأرض. الفرق الرئيسى بينكما أنك من (نطفة) وبقى التراب تراباً ومن
النطفة استويت رجلاً. ومن غير النطفة بقيت الأرض أرضاً وبالذرة صار جزء من
الأرض نباتاً.. والكل من التراب وغذاه الماء.. وأعلن الصاحب إيمانه بكل قوة
قائلاً.

﴿ لَيْكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾.

كل ما في الكون أمامى مادة إيمان لا مادة كفران.. والآخرة خير وأبقى.

٢٧ – إعلان الإيمان

قال صاحب المؤمن: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾

وأعلن إيمانه قويا أمام غرور الجاه والمال. ولم يهتز هذا الإيمان أمام زهرة الحياة الدنيا وزينتها. فالمؤمن يحس قدرة الله في كل ما خلق الله: الأرض. الماء الزرع. الإنسان.. هذا الكون الكبير.

كل ما حول المؤمن ناطق بقدرة الله لأنه ليس بينه وبين رؤية آثار هذه القدرة حجاب. حجاب من الغرور أو الغفلة أو التكاثر في الأموال والأولاد.

من أجل ذلك قال: (لكننا هو الله ربى) ومعناها اللغوى لكن أنا شأنى هو الله ربى. أى إن شأنى أن أعترف بأن الله هو ربى.

- لكن: استدراك على قول الظالم، واستعلاء بالإيمان أنا المدغمة فيها تدل على اعتزازه بأنه المؤمن.
- هو: الفاصلة هنا مزيد من التأكيد كقولك: إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين. الله: لفظ الجلالة الذى لا يشاركه فيه من تدعون من الآلهة أو هو الله الذى به أوّمن، وبه تجحدون.
- ربى: الذى ربانى ورعانى. وضمير المتكلم المتصل يدل على القرب وشدة الاتصال، وفى التركيب قصر صفة ربوبية الله على نفس المتكلم بالنسبة لمخاطبه، أى: أن الله هو ربى أما أنت أيها الظالم لنفسه – فتعبد آلهة غير الله. وهذا القصر مزيد من التأكيد.

كل هذه الجوانب جاءت في الآية تساند بعضها بعضا لتأكيد إيمان المؤمن وثباته أمام مغريات الحياة واستطالة الغنى بغناه، وصاحب الجنة بجنته.

يقول الرجل الصالح ﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾

وفيها اعتزاز آخر. وتأمّل هنا كيف كرر لفظ ربى بعد أن جاء في صدر الآية (لكننا هو الله ربى) فهو لا يعدل عن هذا الإيمان، ولا يشرك بربه أحدا.

ولم يقف الصاحب المؤمن عن حد إدانة الكفر والاستعلاء وإنما فتح لصاحبه الظالم لنفسه طريقا إلى الإيمان إن شاء سلكه.

والطريق يسير: أن لا يقف عند ظواهر الأشياء التي يملكها، ولكن يمد بصره إلى الحقائق وراءها، ويؤمن بالمالك الحقيقي لهذا كله. هو الله سبحانه وتعالى ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤).

ونتابع الآية الكريمة: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرَنُّنًا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾

وهذا عطف إنكار على إنكار. كان عليك وأنت تدخل هذه الجنة ألا تقول ما قلت وهو ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ حَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ثلاث جمل كل واحدة منها درجة في الكفر. لم يكن لك أن تقول ذلك. وإنما عليك أن تقول إذا دخلت جنتك: ماشاء الله لا قوة إلا بالله، فهذه الجنة مشيئة الله: أرضها وماؤها وزرعها وثمرها.

وصدق الله العظيم: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ﴾ ﴿أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَاجًا﴾ ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾

(الواقعة: ٦٣ - ٧٠).

نعم: يا ربنا: لا نقدر على إيجاد القوة التي تثبت الزرع في الأرض، ولا الماء النازل من المزن. وكل ما خلقت هو مادة رزق وإيمان معا. غذاء لأرواحنا وعقولنا وأجسادنا.

- (١) تفكّهون: تتعجبون.
- (٢) مغرمون: مهلكون بهلاك أقاتهم.
- (٣) المزن: السحاب الممطر.
- (٤) أجاجًا: ملحًا.

هذا هو طريق الإيمان. وتأمل قول الله: ((لا قوة إلا بالله))

مرد جميع القوى التي تراها والتي لا تراها إلى الله خالق كل شيء.

وكان المؤمن يقول لصاحبه: رد المشيئة إلى الله. ورد القوة إلى الله، ولا تعرض نفسك وشرك وجنتك لغضب الله عليك.. ولا تقف بقامتك الهزيلة أمام قوة الله وجبروته، وإنما اسجد في محاريب فضله وقدرته وقوته..

وهل كل طغيانك أنك قارنت نفسك بى وبغيرى ممن هم دونك في المال والولد.. هذا كل طغيانك.. بل إنك بمنطقك هذا لو نظرت حولك - وأحسب أن الآية تحمل ذلك والله أعلم لرأيت من هم أغنى منك وأكثر تواضعا لله تعالى. وما من غنى إلا ومن حوله من هو أغنى منه ومن هم دونه مالا وولدا. كل إنسان منا يقف على نقطة في هذا الخط. ولكنه ليس الخط الوحيد في مقياس الإنسان، هناك خطوط كثيرة؛ خط الإيمان. خط العقل، خط العلم، خط الأخلاق، خط الصحة.. كثيرة هي الموازين، وسبحان من قسم هذا كله على عباده ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنَ اللَّهِ﴾

يقول صاحب المؤمن: ﴿أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ولكن هل وضعت قولى هذا في ميزانك: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ هل وضعت القلب المؤمن الخاضع لله في كفة، والقلب الجاحد الكافر في كفة ورأيت النتيجة؟ إن جنتك وزروعك وماءك وولدك و مالك إذا أضفت إليها الجحود أصبحت هشيما تذروه الرياح.. فحصن جنتك وولدك وزرعك بالإيمان فإنه أقوم قبلا.

لم تقل الآية أن هذا صاحب المؤمن لم يكن يمتلك شيئا، أو لا يجد قوت يومه، أو محروما من المال والولد.. ولكنها ذكرت استطالة الغنى بالفرق بين درجتين في الغنى.. ﴿إِنْ تَرَنْ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾.. أقل تفيد الوجود الأقل لا الانعدام.. وبهذا يبدو طغيان هذا الطاغى. فمالك وصاحبك تستطيل عليه لأنك تملك أكثر منه؟

ولكن ألا ترى في دنيانا التنافس القاتل على من يملك أكثر؟ وما أخطر (أكثر) هذه.. فليس لها حدود. وصدق رسول الله ﷺ: (لو أن لابن آدم وادياً من

ذهب أحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب. ويتوب الله على من تاب) متفق عليه رواه ابن عباس وأنس بن مالك رضي الله عنه. أي لا يزال حريصاً على الدنيا حتى يموت ويمتلىء جوفه من تراب قبره وقول المصطفى عليه الصلاة والسلام: (إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها) (متفق عليه. رواه أبو سعيد الخدرى).

وتوجه الصاحب الصالح إلى ربه داعياً وإلى صاحبه محذراً وهو يقول:

﴿ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۗ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ۗ ﴾

دعا ربه. وتأمل هنا تكرار لفظ ربي للمرة الثالثة، أن يؤتين خيرا من جنتك. فهذه قدرة الله تعالى. وليست جنتك هذه عليا الجنان ولاخيرها. جنة فوقها جنات ودونها جنات. وعطاء الله لا ينفد.. وهذه الجنة تأتي بصدق التوجه إلى الله. بالعمل الصالح. بالسعى. قد ترانى أقل منك مالا وولداً ولكن إذا رببت أولادى على الإيمان والاستقامة. وحفظت مالى بأن أكسبه من حلال وأنفقه في حلال وأودى حق الله فيه، وأتعاون مع أولادى على تنمية ثروتى بالخير.. فستكون النتيجة - مع دعائى ربي - بأن يوسع على والأمر كله لله ستكون النتيجة أن يؤتين الله خيرا من جنتك هذه التى نثرت في جوها سموم الجحود. ولوثت أرضها بخطوات الكبر والبطر وماءها بأن تنفس فيه صدرك الكفور..

احذر أيها الصاحب التلوث الذى نثره الكفران في جنتك. فقد يأتى الخطر من السماء حسبانا عاصفة صاعقة أو جراد تحمله الريح إليك لا يبقى ولايذر. أو تتلف أرضها فلا تصلح لزراعة فهى صعيد زلق. أو يغور الماء في الأرض فلا تستطيع أن تتبعه فيها.. أخطار ثلاثة رئيسة إذا رأيت فيها ما يمكن أن تتعرض له الجنة.. ففيها أيضا دلالة على معرفة العبد الصالح لما يمكن أن تتعرض له الجنة.. وهى معرفة قادته إلى الإيمان وثبته في قلبه.

٢٨- وأحيط بثمره

يقول الله تعالى في قصة صاحب الجنتين: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي

أَحَدًا ﴿١٤٠﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿١٤١﴾ هُنَالِكَ
 الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿١٤٢﴾. صدق الله العظيم

فى جملة واحدة من كلمتين وأحيط بثمره.. انقضى الأمر. الفعل مبنى للمجهول. والمعلوم عندنا جميعا هى إرادة الله وحكمته. ولكن كيف تجلت هذه الإرادة مع ذلك الظالم نفسه؟ هل جاء حسابان من السماء، عاصفة اقتلعتها. إعصار فيه نار فاحترقت؟ كلمة "أحيط" تحمل إلى النفس أن كل شئ فى الحديقة ضاع. وكلمة "ثمر" منسوبة إلى الرجل، تحمل إلى النفس شيئاً أكبر من الجنتين: المال والولد.... كل الثمر أحيط به. وقف الرجل فردا كأنه فى دنيا الناس يمثل صورة من الحساب نقرؤها فى قول الله تعالى: ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴾ (مريم: ٩٥).

حاول أن تُجمّع أطراف الصورة فى خيالك، بادئاً بالمشهد الأول ويجرى تصوير القرآن له هادئاً متأنياً، كأنما تنتقل العين فيه فى رحاب الجنتين نخلاً وعبأً وزرعاً وماءً وثمرأً:

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿١٤٣﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿١٤٤﴾.

ثم استحضر بعد هذا بغى صاحب الجنتين، وقد دخل جنته وهو ظالم لنفسه، وكفره برب النعمة خالق السماوات والأرض واستحضر إيمان المؤمن الذى نصحه وحذره. ثم تهب العاصفة أو تنقض الصاعقة أو يندلع حريق.. فإذا المنظر غير المنظر. ضاعت الخضرة والنضرة وأبرز الله آيته فى كلمتين. وأحيط بثمره..

ولنقترب من الظالم نفسه، وقد ذهب عنه المال والجاه، لنراه واقفاً يقلب كفيه على ما أنفق فى جنته، وما هو يراها بعد الإنفاق عليها خاوية على عروشها. والعروش هى السقوف.. سقطت سقوفها. تحطمت أو احترقت.. وسقط معها الغرور والكفران. ولنستمع إلى هذا الظالم وقد ذهب الظلم، والغنى الذى كان. وهو لا

يجد حيلة ولا يهتدى سبيلاً إلا أن يعود إلى ربه تائباً نادماً حين لا تنفع الندامة.. فلن ترد جنته.. إلا أن يتوب توبة نصوحاً ويبدأ من جديد. أما الآن وأمام عدل الله وحكمته وشدة أخذه الظالمين، نسمع صوت الندم:

﴿ يَلَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾

اعترف أنه أشرك. واعترف بأنه كان يعرف الحق وينحرف عنه. هذا مشهد في الدنيا. أم هو مشهد في الآخرة.

ثم يعقب ربنا - جل وعلا - على القول الذي أجراه على لسانه النادم:

﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾.

وهنا نجد ثنائية أخرى: إما أن الرجل كان معتمداً على قومه أو ولده. فهذه واحدة. أو كان معتمداً على قوته وإرادته الذاتية فهذه ثانية. ولقد نفى الله عنه الأمرين معاً. وبين لنا أن فقد الحيلة في نفسه وأهله جميعاً. لا يملك إلا الندم وتقليب الكفين. ثم يقول ربنا:

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾

والولاية النصره. نصره الله كانت للمؤمن. أما الظالم فلم يكن منتصراً وتحمل الآية أكثر من معنى.

هنالك الولاية لله وهو الحق. أو هنالك الولاية الحق رأى النصره الحق لله. كلمة الحق تأتي في الأولى صفة لله تعالى وفي الثانية صفة للولاية. والولاية من الله. والمعينات قريبان. هو خير ثواباً وخير عقباً.. وهذه الثنائية تحمل الدنيا والآخرة معاً. قد يكون بعض الثواب في الدنيا وبعضه في الآخرة. قد تكون عقبى الإيمان في الدنيا وفي الآخرة. وفي هذا نقراً قول الله تعالى. والقرآن يفسر بعضه بعضاً:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكْبَرُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

الْكَافِرِينَ ﴿١٤٦﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ تَجِبُ
 الْحَسِينِ ﴿١٤٨﴾ (آل عمران: ١٤٦-١٤٨)

ولنلاحظ في الآية أن لفظ الحق في قوله تعالى: هنالك الولاية لله الحق، مصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والإثنان والجمع. فيقال: قولك حق. وكلمتك حق. وأقوالكم حق.



وبعد قصة صاحب الجنتين يضرب الله لنا مثلاً آخر: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ
 هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿١٤٦﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا ﴿١٤٧﴾

وهذه ثنائية أخرى نقرؤها بعد الثنائية السابقة. وأول ما نلاحظه في الآية الأولى أن العطف بين أفعالها بالفاء التي تفيد العطف مع التعقيب. وتحمل إلى النفس إحساساً بسرعة الأحداث: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ
 مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿١٤٦﴾.

نزول المطر. الإنبات. جف النبات، نسفته وحملته الرياح. هذه دنياكم أيها الناس. ثم استحضر الوصف الهادئ للجننتين في المثال السابق: الأعناب. النخل الزرع. الماء المتفجر. الثمر.. كل هذا التفصيل يطويه هذا المثال السريع الإيقاع كأنما يقول لنا جميعاً: هذه دنياكم فاعتبروا.

وهذه من الملاحظات التي تستوقف النظر في الدراسة القرآنية: سرعة إيقاع الأحداث. وارتباط درجة السرعة بالهدف الذي تتوخاه الآية الكريمة، والفكر الذي تعطيه، والإحساس الذي تغرسه في النفس المؤمنة.

فى آيات أخرى ترى الإطناب والتفصيل فى وصف نزول المطر واقراً فى هذا قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزِجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (النور: ٤٤-٤٣)

هنا الوصف هادئ كأنك تعيش مع قطرة الماء وهى فى السحاب تتجمع، ثم تسقط.. وتحس الجبال بروعتها وقمها مخازن الماء ثم تحس هدير الماء متدفقا أو ترى سيف البرق قد يشق ظلمة الليل.. وهذا المطر يصيب الله به من يشاء ويصرفه عن يشاء..

هذا الوصف الهادئ المفصل لا تحسه فى الآية التى تجد بين يديها ﴿ وَأَصْرَبَ هُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۗ ﴾

لماذا ذكرت هذين المثالين؟ المثال المجمل هنا والمفصل فى سورة النور؟ ذلك لأبين أن الآية القرآنية لاتؤخذ معزولة عن السياق القرآنى العام. لاتؤخذ معزولة عن الروح العامة للقرآن. أنت فى مواقف محتاج إلى النظر إلى الدنيا نظرة تأمل واعتبار وشكر لله على نعمته. وأنت محتاج فى موقف آخر أن تنظر إليها كأنها قصة سريعة عابرة فى عمر الكون. وأن حياتنا فيها محدودة. وأن العمل الصالح فيها هو كل زادك منها لأخرتك.

ليس فى هذه الآيات تهوين للدنيا، ولا امتهان لها. وإنما فيها أن تضعها فى حجمها القرآنى. وأن تكون لك القدرة على أن تنظر إليها من زوايا متعددة ومن آفاق متعددة، فإذا هى كبيرة حين تعداد نعم الله، وإذا هى ضيئلة إذا دخلت نفسك منها الفتنة. والآيات الكريمة كالأدوية.. كل منها شفاء لحالة معينة. وعون على تجاوز موقف معين

٢٩ - المال البنون والباقيات الصالحات

يقول الله تعالى: ﴿ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف: ٤٦).

ونسأل أنفسنا عن وضع هذه الآية في سياق سورة الكهف بأى شيء استطال المشركون على المسلمين، والأغنياء على الفقراء؟

لا ننسى أنهم قالوا عن المصطفى وهو سيد ولد آدم إنه ((أبتر)) لا عقب له، ذلك بعد أن اختبره الله تعالى بموت أولاده الذكور صغاراً وكانوا يعلمون أنه محدود المال، فكان ما يعيرونه به الفقر، وسجل القرآن اعتراضهم ورد عليه: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمٍ ﴿٥٠﴾ أَهْمُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴿٥١﴾ ؟

ورحمة الله هنا هي الرسالة، وقد قسمها الله تعالى لرسوله ﷺ وهو سبحانه الذى اختار له اليتيم والعيلة.. فكان - من بعد - أباً لكل يتيم، وعائلاً لكل محتاج، ما أعانه الله على ذلك بمال يأتيه، أو توجيهه إلى عمل يوجه المحتاج اليه.. كان هؤلاء المشركون يسيرون في مكة معترزين بأموالهم وأولادهم ويتعالون على الرسول والذين معه.

والمال زينة. والبنون زينة. وهما من فضل الله على عبادة. ولكنهما كأى فضل يمكن أن يحسن الإنسان استخدامه أو يسيء تماماً كحواس الإنسان: السمع والبصر والفكر.. يمكن أن يحسن الإنسان استخدامها أو يسيء، ويكون من ورائها ثواب أو عقاب.

لقد سجلت الآية ظاهر الأمر فقط: المال والبنون زينة الحياة الدنيا، والزينة في ذاتها وفى حدودها الكونية أو الشرعية مقبولة: فمن الزينة الكونية قول الله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيْنًا أَلْسَمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةُ الْكَوَاكِبِ ﴾ (الصافات: ٦).

وقوله تعالى في سورة الملك: ﴿ وَلَقَدْ زَيْنَّا الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ ﴾ (الملك: ٥) وفى سورة ق ﴿ أَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا هِيَ مِنْ

فُرُوجٌ ﴿١٠﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأُنْبِتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿١١﴾
تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿١٢﴾

فهذه الآيات تربط بين الزينة والبهجة والتأمل والعبودية والإنابة إلى الله تعالى.

وفى آيات أخرى نقرأ عن الزينة المكروهة والمحرمة:

- ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر: ٨).
- ﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ (غافر: ٣٧) أى في ضياع وهلاك.

ونحن مأمورون أن نتجمل للعبادة ولبيوت الله في حدود ما بين الله • يقول تعالى: ﴿ يَبْنِيْٓ أَدَمَ خُدُوْا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا ۗ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴾ (الأعراف: ٣١).

وأنت تقرأ هذه الآية: المال والبنون زينة الحياة الدنيا. مع قوله تعالى في أوائل سورة الكهف ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾.

فالمال والبنون زينة ومادة اختبار وابتلاء في نفس الوقت يقول الله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُوْا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيْمٌ ﴾ (الأنفال: ٢٨).

والولد الصالح محمود في كتاب الله وفى الحياة. ونقرأ في وصف سيدنا يحيى عليه السلام من وقت أن كان بشارة لأبيه زكريا الشيخ الكبير: ﴿ يَنْزَكِرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾.

إلى قوله تعالى مخاطباً الابن الصالح ﴿ يَبْحَثِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۗ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ۗ ۝۳۳ ۖ وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۗ ۝۳۴ ۖ وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۗ ﴾

(مريم: ١٢ - ١٥).

ثم نقرأ الآية ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ مع الآية التي تسبقها مباشرة، وهى قول الله تعالى: ﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا آتَيْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۗ ﴾. فتحس وجه شبه بين بذر النبات ونموه وتفتح زهره وبينه ثمراً، ثم ذبولاً وجفافاً وهشيماً تذروه الرياح، وبين حياة الإنسان، المال والبنون كنمو النبات: بذراً وتفتحاً.

الأبناء صغاراً ثم شباباً مزدهراً ثم كهولاً وشيوخاً. دورة حياة بدأت بذرة ثم إلى الأرض تعود..

كذلك المال تكتسبه ويزداد ويصبح زينة الحياة، فإذا أنفقته رأيت الشبه بين الإنفاق واستهلاك ثمار الحقل أو الحديقة.

ولكن وراء هذه الدورة السريعة لحياة النبات تجدد وبقاء، ووراء دورة المال نمو حقيقى إذا ما أدرج منه الإنسان عند الله..

فدورة الحياة سريعة من ناحية وبطيئة أو متجددة من ناحية أخرى كذلك النبات، كذلك الأبناء.. بقاءها ما فيها من بذور صالحة لإنبات جديد أو ادخار صالح لاستثمار جديد، أو عمل صالح يكون أبقى من عمر الفرد في الحياة..

وبهذا يجمع الإسلام بين النظريتين: أن يملك المال ولا يملكك المال، وأن يكون لك الولد ولكن تحمل في قلبك سر الخليل إبراهيم عليه السلام، فيكون عندك الاستعداد أن تقدم ولدك فداء دينك أو وطنك، وأن تقدم نفسك إلى التضحية مؤمناً أن نار النمرود - إن اشتعلت - هي المعبر إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

من أجل ذلك قال الله تعالى:

﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ حَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾

الباقيات الصالحات صفتان لموصوف محذوف تقديره: الأعمال الباقيات الصالحات وبقاؤها أى لازوال لخيرها.

وكان مقتضى الظاهر في ترتيب الوصفية أن تقدم الصالحات على الباقيات ففى أكثر من آية تحل الصالحات محل الأعمال الصالحات من ذلك قوله تعالى:

• ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٣٠).

• ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّالِحَاتُ حَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ (مريم: ٧٦).

وتوصف الأعمال بالصالحات ولا يقال الأعمال الباقيات.. فلماذا جاء في هذه الآية قول الله قول الله تعالى: (والباقيات الصالحات) بتقدم الباقيات على الصالحات.

ولعل هذا للتبنيه على أن ما ذكر قبله ليس بباق وهو المال والبنون^(١) فكان هذا التقديم قاضياً لحق الإيجاز، بقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ (الرعد: ٢٦). وقول الله تعالى في التمثيل السابق: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ يفيد الزوال فهنا ثنائية ومقابلة بين الزوال البقاء. ونماذج لكل منها.

وتقديم المال على البنين في الآية: لأنه أسبق حضوراً لأذهان الناس، ويرغب فيه الصغير والكبير والشاب والشيخ ومن له من الأولاد ما قد كفاه ومن دون ذلك.

وقول الله عن الباقيات الصالحات ﴿حَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ يفيد ثبوت الخيرية في الثواب وتحققه عند الله، وهو المأمول الأكبر.
أما الأمل في المال والولد فهو عرضة للزوال بطوارىء الحياة.

(١) التحرير والتوير ١٥-٣٣٣.

وهنا ثنائية أخرى بين أمل مشكوك فيه مهما يكن حاضره بين يديك من المال والولد، وأمل ثابت في حسن المثوبة والجزاء عند الله.

وقبل الانتقال إلى الآية التالية أود الوقوف قليلاً عند ربط هذه الموازنة بين (المال و البنون) و(الباقيات الصالحات) وبين قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

إن الدراسة المفصلة لهذه القصة أرجو أن أعرض لها عند تحليل لقصة إبراهيم وكيف أنها تمثل بصورة عملية مرحلة هامة في الفكر الديني باعتبارها نقطة الانتقال من القرابين البشرية إلى القرابين الحيوانية.. وقد كانت القرابين البشرية معروفة في التاريخ القديم، فنسختها قصة إبراهيم وإسماعيل عملياً، وبيّنت أن إبراهيم وإسماعيل كانا على استعداد لتنفيذ الرؤيا، ولكن الله الرحيم بعباده فدى إسماعيل بذبح عظيم وأكرم الوالد الشيخ وولده اللذين أسلما لأمر الله، فلم يكن الفداء خوفاً ولا تراجعاً، وإنما كان رحمة من الله بالإنسانية في مشهد يقوم به أبو الأنبياء وولده.

ولقد كان هذا المشهد يمثل الإيمان كله، والحب كله، والذي مهد للفداء والانتقال من عهد القرابين البشرية إلى الحيوانية ولكن الفداء ظل حياً في نفس كل من إبراهيم وإسماعيل وهو مطلوب من أتباع ملة إبراهيم:

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۗ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۗ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (الحج: ٧٨).

إن كل مؤمن يحمل في قلبه هذا القبس الإبراهيمي وفي تربيته الإيمانية، ينبغي أن يكون على استعداد دائم لتضحية إسماعيل. وإسماعيل هنا مفهوم لا شخص محدد. ولنضرب مثالا:

ذلك الأب المؤمن بربه والمحب لوطنه وقومه. إنه يُعلم ولده ليكون في خدمة عقيدته ووطنه. فلنر هذا الابن فرداً في القوات المسلحة: براً أو بحراً أو جواً. فلنره في قوات الأمن مسئولاً عن مكافحة الجريمة. فلنره في مصنع من مصانع الذخيرة.. إن الأب الذي يعد ولده لخدمة عقيدته ووطنه ويعلم أن ولده في موضع

الخطر، وأنه معرض للموت في كل لحظة، يحمل هذه نفحة من إبراهيم خليل الرحمن في نفسه ويغرس روح إسماعيل عليه السلام في ولده. والإثنان أسلما لله تعالى.

وفى هذا يصبح الولد من الباقيات الصالحات. هو زينة الحياة الدنيا وهل هناك زينة أجمل من الشباب المؤمن العامل للوطن والعقيدة؟.

والمال المرصود للخير، المال المزكى المكتسب من حلال. والمتجه إلى الحلال والمعد للإفناق في سبيل الله.. هذا المال يحمل الروح الإبراهيمية أيضاً.

وبهذا عندما تتفخ هذه الروح في حياة الأسرة يتحول مالها وأبنائها من مجرد زينة الحياة الدنيا إلى جزء من الباقيات الصالحات بل يصبحان زينة وباقيات صالحات معاً.

ولقد كانت أموال صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام – والذين اتبعوهم بإحسان زينة المال وباقيات صالحات. وكذلك الصالحون من أبنائهم كانوا زينة الحياة الدنيا وباقيات صالحات. تركوا لنا العلم النافع والقعدة الصالحة. فلا تعارض بين الأمرين إلا إذا جعلت نفوسنا المال والبنين مقدمين على أمر الله وطاعته، والأمل القريب فيهم يحجب عنا الأمل الباقي في أن نكون معهم ويكونوا معنا على طريق الله وطاعته مبدؤها أمر الله ومنتهاها رضوان الله ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ (الفجر ٢٧ – ٣٠).

٣٠ – ولا يظلم ربك أحداً

يقول الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ جُعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٢٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ